الحضارة الغربية بعد الحديثة لأوروبا الغربية:

أهمية الفترة الإنتقالية للحوار الأوروبي العربي

إدوارد مور تمر

اذا كان المرء شرف أن يُدعى لتمثيل بلده فكم يزداد ذلك الشرف اذا ما دعي لتمثيل «حضارته»: إن في ذلك شرفا وتحديا أيضاً. وسأقول بدون تواضع مصطنع ان الدعوة أدخلت على فكري بلبلة عظيمة خاصة لاني غير متيقن من فهم عنوان الدراسة التي طلب مني تحضيرها. ويشير هذا مباشرة الى اختلال في التناسق في الحوار الاوربي العربي، وهذا عائق في طريق أوربا، فإنّا، خلافاً للعرب، لا نملك لغة مشتركة.

كان أجدادنا يملكون مثل هذه اللغة بالطبع. فلقد كان كل المثقفين في أوربا الغربية، منذ بعض القرون، قادرين على قراءة اللاتينية وكتابتها، وقد كانوا يستعملونها كلما كان لهم شيء له أهميته أكثر من أهمية محلية يودّون التعريف به (كما أن المثقفين العرب اليوم يستعملون عربية متفقاً عليها يفهمها فوراً أندادهم في جهات أخرى من العالم العربي بدلا من العربية المتداولة في جهتهم والتي يستعملونها في السوق أو في المنزل). على أن تلك الايام في أوربا الغربية مضى عليها زمن طويل. وان أقرب ما يكون من لغة أوربية حرة في هذه الايام هذا النوع من الانجليزية الذي كتب به عنوان هذا المقال والذي أجده صعب الفهم (مع أنه يسرّني أن أعتبر نفسي انجليزياً مثقفاً).

ومن الصعب أن نعتبر هذه اللغة كلغة لحضارة أوربية بوجه الخصوص، فلو أردنا تحديد موقع جذورها فانا نجدها لا في أوربا بل على الحافة الاخرى من المحيط الاطلسي. فهي في الحقيقة ليست لغة أوربية بل لغة دولية. ويؤدي بنا هذا الى أن نتساءل هل هناك في الحقيقة اليوم ثقافة تختص بها أوربا الغربية؟ إني لأحسّ بالتباس حول هذه النقطة عند منظّمي هذا الملتقى عندما يدعونني للنظر في «الثقافة الغربية ما بعد الحديثة لاوربا الغربية». فماذا يعني بالاستعمال الاول لهذا النعت (لأن التقريب بين هذين الاستعمالين لكلمة «غربي» غير مستحسن)؟ يبدو لي أن ذلك يشير الى أنه لم يعد لاوربا الغربية حضارة تختص بها بل هي تساهم في ثقافة غربية أوسع وان كانت هذه الحضارة من أصل أوربي: وهكذا فالمرغوب منا أن ننظر في الصنف الاوربي الغربي من هذه الحضارة الغربية التي هي أوسع.

أما العالم العربي فمن الواضح، على العكس أنه يعتبر خارج «الحضارة الغربية ما بعد الحديثة». «فالحضارة العربية» خلافاً لحضارة أوربا الغربية»، لا تزال قائمة بدون منازع حسب الموضوع الذي سوف يناقش في الحلقة الآتية من هذا الملتقى واني لا أجرؤ على القول بأن هذا التقدير غلط ولكني أعتبره مهماً جداً وآمل أن يتمكن هذا الملتقى من الوقت الكافي لمناقشته. ولعل هذه الحضارة العربية الحديثة (أو ما بعد الحديثة) هي أيضاً صنف من هذه الحضارة الغربية الأوسع، أو بعبارة أخرى لعل هذا الحوار الذي انهمكنا فيه ليس في الحقيقة حواراً بين حضارتين متميزتين بل بين صنفين محليين لحضارة واحدة؟ هل هناك مقاييس ثابتة تبين أين تنتهي حضارة وأين تبدأ أخرى؟ ولعلي بهذا التساؤل أعترف بجهلي بعَلم البشر (أنثربولوجيا). على أني أرجو أني سأجد بين المشاركين في هذا الملتقى على الاقل عالماً انثربولوجياً يقبل بأن يجيب عن هذا التساؤل.

هذا مشكل من المشاكل التي اعترضتني في عنواني. وهناك مشكل آخر في مصطلح «ما بعد الحديث» وهو مصطلح جديد عليّ. وهذا المصطلح تطابقه من الناحية المنطقية البحتة كلمة «مستقبل». بما أن الحضارة «الحديثة» هي حسب تحديد هذا اللفظ الحضارة الموجودة الآن، فهل المطلوب منّي أن أتنبأ بحضارة المستقبل في أوربا الغربية؟ لا أظن ذلك. ولكن أظن ان المقصود من ذلك هو الحضارة «المعاصرة» ويعني ذلك الحضارة الحديثة وبالخصوص آخر ما ظهر منها، وستنظر الجلسة القادمة من هذا في «الحضارة العربية منذ الانسحاب الاوربي» والغالب على الظن ان ما يعنى بذلك هو زوال الحضور الاوربي العسكري والاستعماري من العالم العربي. فلا شك أنه من المفروض ان يعتني مقالي هذا بمظاهر حضارة أوربا الغربية في تلك الفترة بنفسها.

قد يكون ذلك موضوعا شاسعا يتعدى طاقة مقال فيه ٨٠٠ كلمة، ولكن لا شك أن النصف الثاني من العنوان «أهمية الفترة الانتقالية للحوار الاوربي العربي» قصد به تضييق المحتوى. على أن اللغة المستعملة تكوّن لي بعض المشاكل من جديد. فإن كلمة «انتقال» حسب قاموسي تعني «المرور من حالة أو عمل أو مكان الى آخر». على أنه ليس هناك ما يشير الى المنطلق أو المقصود. ولعل ما يعنى ويقصد هو الانتقال من «الحديث» الى «ما بعد الحديث» أو من «حينئذ» الى «الآن».

ونأتي أخيراً الى عبارة: «الحوار الاوربي العربي». يبدو أن استعمال حرف كبير في أول كلمة «ديّلوق» (حوار) يدل على أن هذا

اشارة الى الحوار القائم المشرف على هذا الملتقى، على أن أشك ان هذه المؤسسة المحترمة نظمت هذا الملتقى من أجل النظر في اقامتها كمؤسسة، ويغلب على ظنّي أن ما يمكر فيه المنظمون هو الحوار الاوربي العربي في مفهوم أوسع بكثير بما أن عنوان الملتقى هو «العلاقات بين الحضارتين».

لهذا فإني أسمح لنفسي بترجمة عنوان مقالي كما يلي: «أهمية التطورات الحديثة في حضارة أوربا الغربية ازاء العلاقات بين أوربا الغربية والعالم العربي». على أني بالرغم من ذلك لست متأكداً اني سهلت الواجب على نفسي كثيراً. فإن كلمة «حضارة» شاملة الى حدّ ان كل ما وقع في أوربا الغربية طيلة الفترة المعينة يمكن اعتباره ضمن الموضوع. وأعتقد أن السؤال الوحيد الذي يمكن لي أن أبدأ في الإجابة عنه في هذا المقال هو: «ما هي التغييرات التي أثرت على الموقف الاوربي من العرب منذ الانسحاب الاوربي من العالم العربي»؟

ومن سوء الحظ أن الحديث عن «الانسحاب الاوربي» نفسه يجرنا الى افتراض مسألة أو مسألتين، أولاً لم يكن الحضور الاوربي العسكري والاستعماري في العالم العربي حضور اوربا بأتم معنى الكلمة. فقد كان حضوراً لبعض الشعوب الاوربية التي كانت المنافسة بينها حادة عامة. وقد كانت الشعوب الاوربية ممثلة تمثيلا عديم التساوي جداً. فقد كانت لبريطانيا وفرنسا الادوار الكبرى بينما كان لإيطاليا دور صغير ولكنه مهم، بينما كان لإسبانيا حضور هامشي. أما البرتغال وهولندا وبلجيكا فبالرغم من أنها كانت سلطات استعمارية في نواحٍ اخرى من العالم فإنها لم تلعب دورا في الصراع من أجل الاراضي العربية قبل الحرب العالمية الاولى وأثناءها. وأما المانيا فبعد أن لعبت الورقة العثمانية وخسرت فإنها طردت من اللعبة العربية من قبل المنتصرين سنة ١٩١٨ وهكذا فإنها وجدت نفسها تلعب دور المعارض طيلة فترة النفوذ البريطاني والفرنسي، فكانت من أجل ذلك حليفة للحركات الوطنية العربية. أما الدول السكندنافية ودول أوربية غربية صغيرة أخرى (ايرلاندة ولكسمبورغ وسويسرة) فإنه لم يكن لها أي دور استعماري، اذن فإن بريطانيا وفرنسا وايطاليا هي الدول الاوربية الغربية التي كان انسحابها (أو طردها) من العالم العربي تجربة قومية مهمة في القرن العشرين وقد يكون من واجبنا أن نضيف اسبانيا التي قامت بحربين استعماريتين ضد العرب (في المغرب وفي الصحراء الغربية). على أن اسبانيا التي بنت قوميتها على «استرجاع» أراضيها من الحكم العربي هي حالة خاصة جداً.

أما بالنسبة الى بريطانيا وفرنسا، والى ايطاليا أيضاً بلا شك، فإن ذكرى العلاقات الاستعمارية وكيفية انتهائها شكلت عاملا هاما في خلق تصرفات تجاه العالم العربي في الفترة الموالية، على أن ذلك يأتي بنا الى المسألة الاخرى التي يفترضها مصطلح «الانسحاب الاوربي». هل يمكن تحديد هذا الانسحاب في الزمان؟ هل وصل الآن الى نهايته؟ وهل يصحّ الحديث عن «الانسحاب» قطعا؟ ألا يكون من الاصلح أن نتحدث عن تغيير في شكل الحضور الاوربي؟ وقد كان هذا التغيير مباغتاً في بعض الاماكن، وتدريجياً وغير كامل في أماكن أخرى. ولا ننس أن الحضور الاوربي في العالم العربي، حتى في أيام قوته، كانت له أشكال مختلفة ما بين الضمّ القانوني للجزائر الى الجمهورية الفرنسية، الى مختلف الحمايات والوصايات، وأخيراً الى العلاقات الفريدة التي أقامتها المعاهدة البريطانية مع السلطنات والامارات في الخليج. وقد يقول البعض إن العلاقات بين بريطانيا وسلطنة عمان لا تزال في الواقع تنتسب الى هذا الشكل الاخير من الحضور. ولعل ذلك ينطبق أيضاً على علاقات فرنسا بجيبوتي اذا اعتبرنا هذا البلد قطعة من العالم العربي.

ولا شك ان الانسحاب، ان كان هناك انسحاب، كان أمراً متقطعاً أخذ وقتاً طويلاً ما عدا ربما فيما يخص ايطاليا، حيث كان الانسحاب نتيجة مباشرة للحرب العالمية الثانية. «انسحبت» فرنسا من سوريا ولبنان في الاربعينيات ومن المغرب وتونس في الخمسينيات ولم تنسحب من الجزائر الا في سنة ١٩٦٢. وتحصلت مصر والعراق على استقلال اسمي سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٣٢. ولكن الجيش البريطاني بقي بمصر الى سنة ١٩٥٦ ودامت سيطرة النفوذ البريطاني بالعراق حتى سنة ١٩٥٨. ولم يحقق اليمن الجنوبي استقلاله الا سنة ١٩٦٧. وأما بالنسبة لدول الخليج فلم يكن ذلك الا في سنة ١٩٧١.

والخليج هو الجهة الوحيدة التي كان «الانسحاب» منها أمراً هيناً لم يفسده أي اصطدام خطير بين السلطة المنسحبة وبين الاهالي. وقد تركت هذه الاصطدامات حتماً أثرها في التصرّفات المتبعة تجاه العرب في البلدان الاوربية المعنية بالأمن. فلقد تغيّر التصرف الأبوي او المتنازل في العديد من الاحوال الى حنق، وكانت بعض الحوادث جدّ مضرة، أما بالنسبة لفرنسا فلقد كانت حرب الجزائر بلا خلاف نكبة وإهانة قومية عظمى: ثماني سنين من اراقة الدماء عرفها الشعب الفرنسي مباشرة بواسطة جيش مكوّن من أبناء الشعب، انهيار الجمهورية الرابعة بعد أربع عشرة سنة فقط من خروج فرنسا من تحت الاحتلال الالماني. خسارة أراضٍ شاسعة وغنية كانت الحكومة قد صرحت رسميا مراراً عديدة بأنها جزء لا يتجزأ ولا ينفصل عن فرنسا. توطين مليون من فرنسيي الجزائر المستأصلة جذورهم في فرنسا. أما كارثة السويس سنة ١٩٥٦ فكانت أقل ضرراً ولكنها كانت خطرة على بريطانيا. فلقد بيّنت لنا بشكل مفاجىء ومهين أننا لم نعد دولة عالمية. ولم يكن للصراع الذي قام في عدن بعد ذلك بعشر سنين تأثير مماثل على انه ساعد في إقرار الشعور بأن القومية العربية عدو لنا، بينما كانت فرنسا بقيادة الجنرال ديغول قد شرعت في التخلص من هذا التصرف والبحث عن علاقات جديدة مع العالم العربي.

ومن حسن الحظ أن الوقع الأكبر لهذا الاصطدامات أحسن به الجيل الذي عاشها مباشرة. أما الاجيال التي بلغت أشدها بعد ذلك في فرنسا وبريطانيا فانها على العموم لم تتبنَّ هذه القضايا التي كافح من أجلها اباؤهم في العالم العربي، وهذه الأجيال عامة تقبل التأويل القومي العربي للدور الذي لعبته بلدانهم في العالم العربي في أوائل هذا القرن ولا تحسّ بأي حنين إليهز. ولم يعودوا يلحون على «الأعمال الشنيعة» أو العنيفة التي ارتكبها الوطنيون العرب أثناء الصراع ويقرّون بكل سهولة بأن دولهم ارتكبت أيضاً اعمالا شنيعة. أما المؤرخون مثل ايلي كدوري وج.ب. كلّي الذين يصوّرون الانسحاب كتهاون من قبل الدول الامبريالية فإنهم حتى الآن لم يكن لهم أي تأثير يذكر على مواقف الاجيال الصاعدة. وعلى العموم يمكن القول بأن الشاب الانجليزي أو الفرنسي اليوم ينظر إلى العالم العربي بتحيّز طفيف لا يتجاوز تحيّز الشاب في ألمانيا أو في الدول السكندنافية.

ولعل الماضي الامبريالي يخدم مصلحته لأنه يسهل عليه العثور على عرب يفهمون لغته وثقافته الوطنية.

على أن ذكرى العلاقات الاستعمارية ليست المنبع الوحيد أو حتى الأهم للتحيز في الموقف الاوربي من العالم العربي. فإن هناك سبباً أخطر لسوء التفاهم في مشكلة اسرائيل. فلو سألنا مواطناً عادياً في أي بلد من أوربا الغربية (مواطن لا يعرف العالم العربي معرفة شخصية ومباشرة) أن يسرد علينا ما يعرفه عن العرب فإني لا أشك في أنه في الجملة الاولى أو الثانية التي سيجيب بها على سؤالنا سيذكر معاداتهم لإسرائيل. فإن وسائل الاعلام الاوربية لا تذكر العرب في أكثر الأحيان إلا عند الحديث عن هذا الموضوع.

وقد كان ذلك الوضع صحيحاً بالخصوص في الفترة السابقة لسنة ١٩٧٣. أما الآن فإن الاخبار التي تنقل عن العرب هي أكثر تنوعاً من أجل الاهمية التي تحصلت عليها بعض الدول العربية في ميدان الاقتصاد العالمي، ولأن عدداً كبيراً من الأوربيين الغربيين يعيشون ويعملون في العالم العربي. على أن الصراع العربي الاسرائيلي ما يزال يبدو عامة وكأنه المشكل الجوهري. وان معظم الاوربيين لا يفكرون في الصراع من حيث يمس بالعالم العربي بل يعرفون ان العرب طرف مشارك في الصراع. وبعبارة أخرى إنهم عوض أن يروا في العالم العربي منطقة لها أهميتها الخاصة (كما هي الحال بالنسبة للهند أو الصين أو إفريقيا مثلا) فهم يرون فيها في أغلب الاحيان ناحية من مشكلة. وحتى عندما يبسط المشكل في شكل معاضد للعرب فإن ما ينتج عن ذلك هو صورة مشوهة وسخيفة للعرب فإذا لم يكونوا أشقياء فهم ضحايا.

ولكن حتى هذه السنين الاخيرة على الأقل فإن المشكل لم يبسط عامة في شكل معاضد للعرب. وذلك أنه بينما لم يهتم الاوربيون بالجانب العربي الا من أجل الصراع نفسه فإن العديد منهم كانوا يعتبرون الجانب الاسرائيلي مهماً مسبقاً. فليست اسرائيل الا إنجازاً أوربياً: وهو كما هو معلوم انجاز قام به الأوربيون الشرقيون أكثر من الاوربيين الغربيين، ولكنه ناتج عن حضارة أوربية جماعية كان موقعها بالأخص في غربي أوربا. ويمكن القول في الحقيقة إن المبرر الاصلي لوجود الصهيونية كانت رغبة يهود أوربا الشرقية في الاستفادة من القيم التي عاشت في أوربا الغربية بعد عصر العرفان: وهي قيم الثورة الفرنسية التي لم تتمكن من النجاح أو نجحت في شكل مشوه فقط في مناخ أوربا الشرقية المتأخر سياسياً واجتماعياً. ولم يكن لليهود الاّ أمل ضئيل في التمتع بالحرية والمساواة والإخاء في امبراطورية القياصرة الروس. فلقد وجدوا أنفسهم في الحقيقة مهددين فعلا من طرف الشكل الذي اتخذته القومية في طريقها الى الشرق، لأن الأمم كانت تحدد نفسها عادة حسب مقاييس كانت لا تأخذ اليهود بعين الاعتبار مع أنها جعلت من الوفاء والوحدة القومية القاعدتين الاساسيتين للنظام الاجتماعي، مبطلة للأمان غير المستقر الذي كان يمنح لسكان الحارة اليهودية (الغيتو) تحت النظام المسيحي قبل عصر العرفان. وهكذا فإنه لم يسمح لليهود بغض الطرف عن تطور مفهوم القومية، فلقد أرغموا على الاستجابة له، وبما أنهم حُرموا من المشاركة في الحركات القومية المحلية فإنهم أجبروا على خلق قومية خاصة بهم.

ولكن هذا لا ينطبق على أوربا الغربية على العموم، فإن المجموعات اليهودية في فرنسا وبريطانيا، وحتى في ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى، كانت تدمج تدريجياً في ثقافات تلك البلدان الوطنية التي كانت علمانيتها في ازدياد. وبالطبع فإن هذا التطور لاقى مقاومة، فلم يكن أي بلد من هذه البلدان خالياً من المناوئين لليهود. ولكن هرتزل استخلص الدرس الخاطىء من الخصومة حول درايفوس لأنه استخلصه قبل أوانه. لقد طال الخصام حوله ولكن النجاح كان حليف معاضدي درايفوس في آخر الأمر. على أن هرتزل كان على صواب من ناحية أخرى، ذلك أن أوربا الغربية وان كانت قادرة لو أعطيت الوقت على أن تضمن الحرية والعدالة ليهودها، فإنها قد لا تجد القدرة ولا الارادة لقبول هجرة زاحفة من يهود أوربا الشرقية. ولقد هاجر بالطبع عدد كبير من اليهود من الشرق الى الغرب. فإن معظم اليهود الذين يعيشون الآن في بريطانيا وفرنسا هم من أصل أوربي شرقي. على أن الذين هاجروا لم يكونوا الاّ جزءاً قليلاً من اليهود الذين كان يمكنهم أن يهاجروا. وان التخوف من أن يكونوا طليعة هجرة أكبر بكثير كان من الحوافز المهمة للحركة المناوئة لليهود ولمعاضدة الصهيونية في أوربا الغربية في السنوات الأولى من هذا القرن. وكما هو معلوم فمما حرّض بلفور نفسه تخوُّفه من القوة الثورية للجماهير اليهودية اذا لم يخصص لحماستها مخرج آمن (وبما أن فلسطين خارج أوربا فمن المفروض أنها «آمنة» بهذا المعنى).

اذا فليس هناك شيء غير طبيعي في المساندة الاوربية للصهيونية. فإن الطبقات ذات الوعي السياسي في أوربا الغربية كانت فيها قابلية للرأفة بيهود أوربا الشرقية الذين أنكرت عليهم حقوق صارت تعتبر في أوربا الغربية جزءاً لا يتجزأ من طبيعة الانسان، ولم تكن تلك الطبقات قادرة على ايجاد أي حل جلي للمشكل داخل أوربا الشرقية، وكانت تخشى عواقب أي محاولة لنقل المشكل الى أوربا الغربية.

أما عزم الصهيونيين على حله في فلسطين فإنه ظهر لهم كمخرج هيّن من المعضلة وأثار حنواً قوياً في قلوب المسيحيين الاوربيين الغربيين الذين تشبعوا **بالعهد القديم** في صغرهم.

ومن الواضح ان في اللجوء الى الصهيونية ما يساوي اعترافاً بالخيبة من قبل الليبرالية الاوربية الغربية. فلقد خابت اولا في نقل القيم الليبرالية الى أوربا الشرقية. ثم ان الليبرالية خابت (وهذه نكبة أعظم من الأولى) في التصدي للهجوم الفاشي في أوربا الوسطى وخاصة في ألمانيا التي كانت في القرن التاسع عشر وفي اوائل القرن العشرين تبدو وكأنها تلعب دوراً هاماً، ان لم يكن أهم دور، في تطور الحضارة الاوربية. أما بعد أن أبادت المانيا النازية ستة ملايين من اليهود الاوربيين، فلقد صار من قبيل المستحيل أخلاقياً التمادي في المناداة بالحل الليبرالي العادي «للمشكل اليهودي» الذي يتمثل في قبول اليهود ومعهم حضارتهم اليهودية ومؤسساتها كأعضاء متساوين مساواة كاملة في الدول التي كانوا يسكنون أرضها. واني لأتساءل اذا كان أي المشاركين في هذا الملتقى (سواء أكان أوربيا أو عربيا) يقبل بأن يتجول في المحتشدات حيث كان اليهود الذين نجوا من المذابح «النازية يعيشون سنة ١٩٤٥» وان يفسر لهم ان الحل العادل لمشكلهم يكون في رجوعهم الى ديارهم في أوربا وبولونيا وأوكرانيا الخ وفي محاولة جديدة للعيش آمنين مع جيرانهم هناك.

ومن الممكن أن ذلك هو ما كان علينا أن نفعله. ولعل الناس القليلين في أوربا الغربية الذين كانوا يعرفون شيئاً عن فلسطين ولم يكونوا متعصبين للصهيونية (وهم خاصة موظفون بريطانيون كانوا يعملون في ادارة الانتداب أو لهم صلات بالعالم العربي) كانوا يعتبرون هذا الحل حلاً أصلح. ولكنهم كانوا أقلية ضئيلة وجعلهم تعاطفهم مع الهموم العربية يظهرون بسهولة كأناس قساة القلوب ومنعدمي الرحمة نحو المصيبة المهولة التي أصابت اليهود. أما الاغلبية الساحقة من الرأي العام في أوربا الغربية فإنها انساقت وراء الحل الصهيوني للمشكل اليهودي بدون أن تدرك عامة طبيعة هذا الحل المنافية لليبرالية في جوهرها، وهو الحل الذي أذنب في حق تعاليم الليبرالية من ناحيتين: أولا ان فكرة الدولة اليهودية نفسها تنطوي على تفرقة بين البشر تعتمد على الوراثة أو على العقيدة الدينية. ثانياً إن خلق مثل هذه الدولة في بلاد سكانها معظمهم غير يهود لا بدّ أن يكون سبباً في ترحيل هؤلاء السكان أو اخضاعهم وفي إنكار حقهم في الحكم الذاتي.

ومما زاد في تعقُّد هذه المسألة أن رواد الحركة الصهيونية أعلنوا أنهم اشتراكيون. لم يكن ذلك ليقربهم من قلوب بعض أبناء الطبقة الحاكمة في أوربا الغربية في أوائل القرن العشرين، ولكن الاشتراكية في أوربا سنة ١٩٤٥ كان شأنها يعظم. فلقد كان الاشتراكيون، مهما تعددت اتجاهاتهم، في طليعة النضال ضد النازية. وهكذا فإن الاوربيين الغربيين الذين كانوا في السابق مستعدين للرفق باليهود لأنهم الضحايا الأول للنازية تبنوا أيضاً حركة بدت لهم كمحاولة جريئة تقوم بها الصهيونية لنقل أكثر القيم الأوربية تقدما وتفتحاً، وهي القيم الاشتراكية، الى منطقة متأخرة نسبياً من العالم وهي الشرق الاوسط. وهكذا فبعد الرومنطيقية الأدبية التي تنظر الى الماضي أضيفت رومنطيقية خيالية تنظر الى المستقبل.

وبالطبع لم تحظ الاشتراكية طويلا بإعجاب الجماهير في أوربا الغربية كما كان الحال في سنة ١٩٤٥. فلقد تلوثت بدورها من جراء اقترانها بالتأخر والطغيان في أوربا الشرقية. وتعلّم الجمهور في أوربا الغربية التمييز بين أنواع الاشتراكية والإلحاح على أهمية الديمقراطية المتعددة النزعات. على أنه خلافا للجمهور الامريكي لم يتعجل ليستنتج أن بين الإشتراكية والديمقراطية تناقضاً. وصارت «الديمقراطية الاشتراكية» (ويمكن التعريف بها كرأس مالية ينظمها ديمقراطيون لا تربطهم بالمثل الاشتراكية إلا صلة سطحية) أنموذجاً سياسياً تتميز به أوربا الغربية. وهذا هو بالتدقيق الانموذج السياسي الذي اختارته اسرائيل.

وهكذا فإن الرأي الاساسي لأوربا الغربية في العالم العربي طيلة ربع قرن على الأقل ينطوي عليه هذا التصريح: «اسرائيل هي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» ومما يؤسف له أنه لم يتعجل الاوربيون الغربيون بالسؤال عما يكون تأثير وجود هذه الديمقراطية في وسطهم على العالم العربي المجاور، أو على سكان فلسطين العرب. فلقد توهموا أن وجود مثل هذا الانموذج لا يمكن إلا أن يفيد ما يحيط به وعللوا نفور العرب منه بتعنُّتهم وتأخرهم وتعصبهم، ورأوا في العرب أناساً ذوقهم غير سليم الى حدّ أنهم يعطلون حل المشكل اليهودي الذي طالما تمناه الناس. فلو كان هناك أي شعب تجعله مصائبه الماضية يستحق التمتُّع بدولته الجديدة في أمان فلا يمكن أن يكون الا الشعب اليهودي. ما للعرب لا يقدرون على ادراك ذلك وما لهم لا يتركون اليهود وشأنهم؟ هذا تساؤل لا يتطلب جواباً، فالجواب واضح.

وقد كان هذا الرأي سائداً في كلّ بلدان أوربا الغربية. وان كانت هناك اختلافات فقد كانت شكلية ولم تصبح هامة حقاً الا عندما بدأ الإجماع في التلاشي بعد ١٩٦٧ وعلى الخصوص بعد ١٩٧٣. أما البلدان التي كان فيها هذا الاجماع متيناً جداً أو قَلَّ أن يشك فيه أحد فكانت في آن واحد تلك البلدان التي عرفت الاضطهاد النازي ولم يكن لها أي علاقة مع العالم العربي: النرويج والدانمرك ودول البينيلوكس وألمانيا الغربية. وفي كل هذه البلدان ما عدا ألمانيا فإن الاتفاق كان بالإجماع حقيقة طوعا. أما في ألمانيا فقد كان هناك عنصر من الضغط الاخلاقي وربما كان هناك خلاف باطني اجتهد الناس في عدم اظهاره للعيان. فلم يكن من الممكن بتاتاً لأي ألماني أن يقدح في اسرائيل لأنه إذا ما فعل ذلك يعرّض نفسه لتهمة تبرئة ما فعلته ألمانيا مع اليهود سابقاً. ولقد استغل بن غوريون ذلك بحذق (وربما كان قصير النظر في استغلاله هذا) كي يقتلع تعويضات مالية من حكومة ألمانيا الغربية، وقد لامه مناحم بيغن من أجل ذلك لوماً لاذعاً. ولا بد أن أقول اني أرى أن بيغن كان محقاً في ذلك، فإن في هذه التعويضات إهانة لذكرى الأموات وهي ترمي الى تشجيع الجمهور الألماني على تجنب المشاكل الحقيقة التي خلقتها المذابح، بينما تعتبر اسرائيل كدولة عميلة أقرت الرأي على اقتلاع كل ما يمكن أن تكتسبه من مصائب شعبها. وان استحالة الإعراب عن هذه الافكار علانية في ألمانيا في ذلك الوقت لم يقوّم الأمور.

اما في بريطانيا فإن المعارضة على العكس لم تلتزم قط السكوت تماماً. وبالرغم من أن بريطانيا كانت تشاطر أوربا في نفورها من شناعة ما حصل لليهود فإن دورها في هزيمة ألمانيا النازية جعلها أقل استعداداً لقبول نصيب من الذنب بينما كانت عمليات الارهاب التي كانت الحركات اليهودية السرية تقوم بها ضد العساكر البريطانية في فلسطين تثير غيظاً كبيراً ضد الصهيونية في وقت كانت بقية العالم الغربي مستعدة لمساندة الصهيونيين مساندة عمياء. وان التزامات بريطانيا المعتبرة في العالم العربي جعلت العديد من عسكرييها ودبلوماسييها وادارييها وساستها على صلة بالطرف العربي في مشكلة فلسطين. وهكذا كان دائماً هناك في بريطانيا شق من الرأي العام يساند العرب، ومما عزز هذا الشق مغامرة السويس التي تسببت في تحوّل شعبي ضد معاملة الحكومة السخيفة الشرسة لعبد الناصر، وكذلك ضد تواطؤها الظاهر مع اسرائيل في تدبير التدخل العسكري. ولكن على العموم فإن انتقاد العملية لم يبدل في تفكير الناس فيما يعتبرونه الحق والباطل في الصراع العربي الاسرائيلي، وبقيت الوجهة الموالية للعرب لا تحظى بتأييد الجمهور. أما في سنة ١٩٦٧ فقد صارت هذه الوجهة في الحقيقة مخجلة. على أنه على الأقل كانت هناك نواة من الناس (نواب في البرلمان وصحافيون وديبلوماسيون متقاعدون وجامعيون) قادرة على مواجهة هذه الأزمة بتكوين المجلس من أجل انجاح التفاهم العربي البريطاني.

وقد كان ارتباط فرنسا نفسها بالعالم العربي ارتباطاً منع وجهة النظر الصهيونية من الاستيلاء عليها مع أن ذلك الاستيلاء كاد يكون

كاملا طيلة عشر سنين أو أكثر بعد الحرب العالمية الثانية. وخلافاً لبريطانيا لم يكن لفرنسا أي دخل في فلسطين نفسها، ولم يعد لها بعد استقلال لبنان وسوريا (الذي لم يعالجه ديغول برصانة وهو ما استغله البريطانيون) أي مصالح هامة في المشرق. على أنها كانت لا تزال السلطة السائدة في المغرب، ولم تكن المسألة الفلسطينية بشكلا هاماً هناك، ويبدو أنه لم يسلط عليها أي ضغط قوي يجعلها تحاول تعزيز موقفها في المغرب باظهار أي ميل نحو وجهات النظر العربية تجاه المشكلة الفلسطينية. وأمام معارضة وطنية عربية مطردة يعاضدها جمال عبد الناصر في ممتلكاتها في شمال إفريقيا فإن الجمهورية الرابعة رأت في اسرائيل حليفة طبيعية واستمر ديغول في هذه السياسة عندما رجع الى الحكم سنة ١٩٥٨. ولكن لما نمت معارضة حرب الجزائر في فرنسا ظهر العطف على العالم العربي والاهتمام به على الأقل عند فريق من المثقفين الفرنسيين. وقد لقي هذا الإهتمام بعد ١٩٦٢ تشجيعاً رسمياً لأن ديغول سعى في محو ذكرى المأساة الجزائرية وتحويل عمليته السياسية التي منح بها الاستقلال الى مصلحة بإقامة علاقات أوسع بين فرنسا والعالم الثالث عامة والعالم العربي خاصة. على أنه لا بد أن نضيف أن الرأي العام الفرنسي في معظمه كان متردداً في الاحتذاء بمثال ديغول، وأدّت ادانته لإسرائيل كدولة معتدية سنة ١٩٦٧ ومنعه لبيع السلاح الى عاصفة من الاحتجاجات ازدادت حدتها عندما وصف دي غول إسرائيل في ندوة صحيفة «كشعب عنيد ومتسلّط».

إذا فإن الرأي العام الاوربي الغربي كاد أن يجمع على مساندة اسرائيل سنة ١٩٦٧، ولم تكن هناك إلا أقلية ضئيلة من الأوربيين الغربيين تعرف العرب أو تهتم بهم باعتبار يتعدى كون العرب أعداء اسرائيل. أما اليوم فإن الوضع ازداد تعقداً. فبالرغم من أن الصراع العربي الاسرائيلي لا يزال يظهر غالباً كالمشكل الجوهري في تغطية وسائل الاعلام للعالم العربي، فلقد صار للعرب حضور ملموس في نظر الرأي العام الاوربي في محاور أخرى وبالخصوص فيما يخص البترول. وفي الوقت نفسه صارت تغطية الصراع نفسه فيها أقل انحيازاً، وهكذا فإن الآراء المتعلقة بهذا الصراع صارت عديدة ومختلفة. فلا يمكن الآن أن نتحدث عن اجماع في الرأي. ولكن الرأي العام الاوربي الغربي ليس منقسماً انقساماً واضحاً بيّنا حول هذا المشكل. بل ما نجده هو أن الآراء على اختلافها كلها ممثلة وان الشخص الاوربي الغربي الوسط (ان كان تصور مثل هذا الانسان ممكناً) غالباً ما يرى أن اسرائيل والعرب مخطئون على حد سواء. والفلسطينيون الآن موجودون في أذهان الغربيين كما لم يكونوا في ١٩٦٧ ويعتبرون عامة كشعب يستحق المساندة. ولكن هناك تردد في أن تمتد هذه المساندة الى منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل السياسي للفلسطينيين. فلقد سمع الشخص الاوربي الغربي الوسط عن منظمة التحرير الفلسطينية ولكنه لا يزال يربطها خاصة بالإرهاب.

لذا فليس لنا أن نبالغ في أهمية التغيرات التي وقعت. فقد يمكن تلخيصها بقولنا إن حواراً بين أوربا الغربية والعرب «بالمعنى الواسع (وهو معنى الالتقاء بين «حضارتين» لا بين حكومات فقط) هو الآن ممكن وواجب. ولكن نجاحه ليس مفروغاً منه.

هناك على ما أظن ثلاثة عوامل هامة عملت على تغيير المواقف الاوربية الغربية تجاه العرب طيلة الخمس عشرة سنة الأخيرة. أحدها هو تطور الصراع العربي الاسرائيلي والثاني هو معرفة أوربا الغربية لنفسها ككيان له مكانته الخاصة في العالم وبالنسبة للولايات المتحدة على الخصوص. والعامل الثالث، ولا شك أنه أهمها ولكنه في آن واحد أعوصها لأنه متفاعل مع العاملين الآخرين، هو مفعول أزمة الطاقة.

فلنتحدث أولا عن الصراع العربي الاسرائيلي. أن أهم تطور في هذا المجال هو أن العرب (على الأقل كما نراهم في أوربا الغربية) منذ ١٩٦٧ صاروا في مقام المظلومين. ولعلهم كانوا يعتبرون أنفسهم مظلومين من قبل ١٩٦٧. فلقد برهنت اسرائيل على قوتها العسكرية المتفوقة سنة ١٩٤٨ ومن جديد سنة ١٩٥٦. وقد طرد الفلسطينيون من ديارهم ومنعوا من العودة. واحتلت اسرائيل أراضي أوسع مما منحت الأمم المتحدة للدولة اليهودية. ولكن للأسباب التي تحدثنا عنها سابقاً لم يعلم الجمهور الاوربي الغربي بأي شيء من ذلك. فقد كان الاوربيون الغربيون يكتفون بالنظر الى الخريطة فيرون دويلة اسرائيل وسط مساحات شاسعة من الاراضي العربية تديرها حكومات هدفها المعلن عنه رسمياً هو ازاحة اسرائيل من الخريطة. فالخصام يدور حول وجود اسرائيل وليس حول حدودها. وظن الاوربيون الغربيون بدون رياء أن اسرائيل هي المنطقة التي تبيّنها الخريطة وهي المنطقة التي حددتها خطوط الهدنة في سنة ١٩٤٩.

أما الاسرائيليون الذين كانوا يعلمون جيداً أن تلك الخطوط لم تكن الا خطوط هدنة نتجت عن عمليات عسكرية فإنهم ظنوا أنه يمكن تحديد خطوط جديدة بعد عمليات عسكرية أخرى. ولم تكن أوربا الغربية موافقة على هذا الرأي. فإنها اعتبرت ان اسرائيل بامتدادها وراء حدودها الأولى صارت قوة احتلال. وبينما كانت مطالبة اسرائيل بالأمن وبالاعتراف بها تبدو للاوربيين الغربيين معقولة فإن مطالبة العرب بإرجاع أراضيهم صارت تبدو لهم معقولة أيضاً. والحل الواضح في تفكير الاوربيين يتمثل في تنازل كلا الطرفين؛ وكان يبدو في أول الأمر أن هذا الحل هو الذي تعرضه اسرائيل بينما كان العرب يرفضونه بترديدهم كلمة «لا» ثلاث مرات بالخرطوم. ولكن مع مرور الوقت صار العرب بصفة أوضح فأوضح يرغبون في قبول هذا التنازل بينما صار الاسرائيليون يعارضون بصفة أكثر فأكثر صراحة مثل هذا الحل.

وقد كان هذا عاملاً هاماً في تحويل الرأي العام الأوربي الغربي الى الجانب العربي. وهناك عامل ثانوي قريب من هذا الاخير ويتمثل في ظهور المشكل الفلسطيني والشعب الفلسطيني كشعب يمكن التعرف عليه وقادر على التعبير على أمانيه وشكاويه. ومما مهّد لذلك توحيد فلسطين بالفعل من جديد كما كانت قبل ١٩٤٨ تحت الحكم الاسرائيلي وتنازل الملك حسين عن حق الاردن في الضفة الغربية سنة ١٩٧٤ والحملة الدبلوماسية العربية المشددة من أجل دولة فلسطينية في الضفة الغربية وفي غزة يمكنها التعايش مع اسرائيل في حدود ١٩٦٧. أما منظمة التحرير الفلسطينية فإنها حصلت على بعض المعاضدة في أوربا الغربية بقدر ما ساندت هذا البرنامج بصراحة (ويعني ذلك أن هذه المساندة تعتبر غير كافية حتى الآن). ولكن لا بد أن نضيف أن منظمة التحرير الفلسطينية حصلت على معاضدة قطاع من الرأي العام في أوربا الغربية (ما يسمى بالأحزاب اليسارية الجديدة) بصفتها حركة

مقاومة تقدمية بعد ١٩٦٧. وقد استفادت أيضاً في فرنسا وايطاليا من العلاقات الرسمية التي وطّدتها مع الاحزاب الشيوعية ذات النفوذ الكبير.

وهناك ناحية ثالثة من الصراع العربي الاسرائيلي يسّرت التفهّم بين أوربا الغربية والعرب، وهي ميل اسرائيل الى أن تكون مطابقة للتصور العربي للسلوك الصهيوني، فمن الواضح ان هذا صار جلياً بالخصوص منذ أن فاز مناحيم بيغن بالحكم وظهر بصورة كاريكاتورية متعمدة أثناء الاحداث التي وقعت في لبنان في الصيف الأخير. لا يمكن أن يكون عدد الأوربيين الغربيين الذين لم يبدأوا في الاحساس بشيء من العطف نحو وجهة النظر العربية الا قليلا.

من الواضح أن عامل بروز كيان أوربي هو أمر قائم أكثر من «حضارة» أوربا الغربية، على أن التعريف بهذا الكيان وربطه بالعالم العربي شيء هو أصعب بكثير. ولكن من الجلي أن أقل ما يمكن أن يشترط في حوار أن يكون الطرفان فيه على قيد الوجود. واني من أجل هذا المقال فرضت أن الطرف العربي موجود: وهذه نقطة من المحتمل أن ينظر فيها المقال الموالي بقلم الدكتور عبد القادر زبادية. على أن ما قلته سابقاً لا يسمح بأي شك في كوني لا أعتبر وجود الجانب الاوربي أمراً مؤكداً. وقد كنت في الحقيقة لاحظت ان وصف الحضارة في أوربا الغربية كحضارة «غربية» يتضمن شيئاً من الشك حول هذه النقطة من طرف منظمي هذا الملتقى.

ومما هو معترف به انه يمكن في البحث عن الأصل التاريخي لفكرة «أوربا الغربية» أن نرجع الى تقسيم الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع للمسيح. ومن المحتمل أن يكون هذا الموضوع قد طرق في مقال آخر. ولعلي أجرؤ على القول هنا أن معنى العالم المسيحي اللاتيني الافرنجي كوحدة انحطّ بعد الاصلاح البروتستاني، وانتقل الاهتمام الى القوميات المكوّنة لأوربا الغربية من جهة والى عالم أوسع امتدت إليه الحضارة الاوربية تدريجياً من جهة أخرى حتى صارت لا تعتبر بعد ذلك حضارة أوربية بل حضارة «غربية» فقط.

أما مفهوم أوربا، ككيان له شخصية مشتركة ومصالح مشتركة تختلف عن مصالح بقية العالم، فإنه لم يظهر من جديد في الحقيقة الا منذ ١٩٤٥. وقد كان هذا الظهور ردّاً على استفزازات مختلفة: تجربة حربين أوربيتين هامتين كان تخريبها فاحشاً الى حدّ أن الاوربيين أحسوا بوجوب التحالف بينهم لتجنب حدوث الحرب من جديد؛ احتلال أوربا الشرقية من قبل الاتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية وما نتج عنه من انقسام للقارة بين شرق شيوعي وغرب غير شيوعي؛ خسران دول أوربا الغربية لممتلكاتها الاستعمارية الشاسعة خارج أوربا؛ وأخيراً الخشية المطردة أن يصير معنى الحضارة «الغربية» لا يشير فعلا الا الى الحضارة الامريكية أن لم يَتَحَدَّ أحد في الغرب شوكة الاميركان.

ان هذا التطور الأخير سببٌ لا بد منه وان كان غير كافٍ من أجل وجود أوربا الغربية في شكل كيان سياسي وثقافي واعٍ بنفسه. ومما عطل هذا التطور في السنين الأولى الموالية للحرب العالمية اعتراف الاوربيين الغربيين بالجميل من أجل الإعانة الأميريكية في التغلب على النازية واحتياجهم للإعانة الامريكية من أجل تحديد. بناء اقتصادياتهم المتهدمة وباحتداد الحرب الباردة التي لم تدع أي مجال نفسي من أجل أي شيء بين موقف معاضد للاتحاد السوفياتي وآخر يساند أمريكا بلا شرط. ولكن الانتعاش العجيب الذي طرأ في الستينيات على أهم اقتصاديات القارة، وقد تركزت في المجموعة الاوربية، وتجربة عشرين سنة من الأمن خلقت ثقة جديدة في نفوس الاوربيين الغربيين.

وقد شكلت حرب فيتنام ابتداء تدهور يكاد يكون متواصلا في النفوذ الامريكي. وهكذا فإن الفرنسيين والبريطانيين، بينما كانوا لا يزالون ينظر كل واحد منهم الى الآخر نظرة ملؤها سوء الظن والاحتقار، وبعد أن سوّوا مشاكلهم الامبريالية، لم يتورعوا من التأسف من امبريالية امريكا الجديدة التي ظهرت لهم وكأنها تنقصها الحنكة، ولم يعد من الذوق في أوربا الغربية عامة أن يعجب المرء بحيوية الامريكان. فإن أوربا «المعجزات الاقتصادية» رأت أنه يمكنها التأليف بين حيوية مماثلة أو أكبر وبين حنكة أكبر ورثتها عن قرون من الحضارة.

ولكن عملية خلق وعي أوربي غربي جماعي تحتم عليها أن تكون بطيئة، ويحتمل أن يكون ديغول (وهو الرسول الداعي إليها) لم يعجل الترحيب برسالته بالكيفية التي اتبعها في الاعلان عنها. ولم تكن الدول الاوربية الغربية الأخرى مستعدة للاحتذاء بفرنسا في تهديم النظام العسكري لمنظمة الحلف الاطلسي. ولم تر من السهل قبول «أوربا أوربية» اذا كان ذلك الاصطلاح يعني مجموعة تخدم المصالح الفرنسية تحت نفوذ فرنسا. ثم أن الحاح ديغول على معارضة دخول بريطانيا المجموعة عوضاً عن تسهيل بناء مجموعة ملتحمة ومنسقة زادت الطين بلة في الصراع بين فرنسا وشركائها. ونتج عن ذلك أن التحاق بريطانيا بالمجموعة عوضاً عن أن يسهله النمو الاقتصادي السريع في الستينيات فإنه لم ينفذ إلا في المناخ غير المناسب السائد في السبعينيات. وأخيراً فإن تخيّل ديغول المستحيل لأوربا «تمتد من المحيط الاطلسي الى جبال الاورال» رغم نبالته فإن فيه دعوة للحياد كان شركاؤه غير قادرين على قبولها وساهمت في صرف اهتمام الناس عن واجبات الحاضر.

ولم تبدأ المجموعة في العمل كما كان يريد ديغول (مبدئياً) أن تعمل إلا بعده معبرة عن وعي سياسي أوربي مشترك. وهي حتى اليوم تعمل بصفة بعيدة عن الكمال، لأن وعيها لا يزال بدائياً. ذلك أنه بالرغم من أن معارضة السياسة الامريكية وعدم الرضى عن القيادة الامريكية أوسع انتشاراً منذ خمس عشرة سنة، فإنه لا يوجد أي اتفاق حول ما يجب استنتاجه في الميدان السياسي. فلا نجد الا أقلية ضئيلة من الأوربيين الغربيين تحبّذ ترك الحلف الأطلسي تماماً. والعديد منهم يحبذون موقفاً أوربياً أكثر استقلالا داخل الحلف أو يريدون توازناً فيه أكثر مساواة بين «الركنين» (أوربا الغربية والولايات المتحدة) اللذين يعتمد عليها. على أنه من الصعب أن نعرف كيف يمكن انجاز ذلك دون أن تصير أوربا الغربية قوة عسكرية مضاهية في قدرتها للولايات المتحدة ويستلزم ذلك شرطين سياسيين هما معدومان في الوقت الحاضر في أوربا الغربية، القبول بتوحيد القوات الدفاعية الوطنية (بما في ذلك قوات الردع النووية البريطانية

والفرنسية) بحيث تصبح مؤسسة أوربية فوق - وطنية تخضع لحكم جماعي، وقبول الزيادة في النسبة من المداخيل القومية المخصصة للدفاع.

على أنه لا شك أن هناك «موقفاً» أوربياً الآن، وانه يختلف عن موقف الولايات المتحدة ويعارضه في العديد من المسائل العالمية الحيوية. أيدل هذا على صراع جوهري بين المصالح الاوربية الغربية ومصالح الولايات المتحدة؟ أم ليس هذا الاّ اختلافاً في الآراء حول السبيل الصواب لخدمة المصالح المشتركة؟ ان ذلك لا يزال موضع جدال. ولكن سواء أصارت مصالحنا متباينة أم لا، فمن الواضح أن موقعنا الجغرافي له تأثير على نظرتنا للعالم. ذلك أن عامة الناس في أمريكا يرون أوربا الشرقية والشرق الاوسط مناطق نائية من العالم يمكن ربطها بأصناف بسيطة. أما بالنسبة للأوربيين الغربيين فإن هذه المناطق أقرب وهكذا فإن تعقيدها وتضاربها وتنوعها من أجل ذلك ظاهر للعيان.

ولا بد أن نضيف الى ذلك أن الولايات المتحدة هي (اذا صح هذا التعبير) الحزب الحاكم داخل الحلف الاطلسي منذ ثلاثين سنة. فقد أخذ الامريكان على عاتقهم التصرف في المصالح الغربية، وخاصة في مناطق خارجة عن النطاق الرسمي لمعاهدة شمال الاطلسي. ان قوتهم الاقتصادية وخاصة العسكرية هي التي اضطرتهم للاضطلاع بهذا الدور، ولم تقم أوربا الغربية بأية محاولة حقيقية لمنافستهم في ذلك. وهكذا فإن أوربا الغربية تجد نفسها في موقف حزب الاقلية المعارضة الذي ليس له أي أمل في التحصل على الحكم. فإن هذا الحزب يتمتع بلذة انتقاد الحكومة وعرض سياسات تعويضية بدون أن يكون ملزماً أن يبرهن على أنه يمكنه أن ينجز عملا أحسن أو على أن سياساته يمكنها في الحقيقة أن تنجح، على أن قادة هذا الحزب المسؤولين يعلمون جيداً أن انتقاداتهم لن تكون لها أهمية الا اذا كان هناك في المستقبل أمل في أن يؤثروا على سياسة الحكومة.

أما بالنسبة لقوة خارجية اشتد سخطها على سياسة الحكومات القائمة (وهذا ما يحس به العرب نحو السياسات الغربية في الشرق الاوسط) فإن حزب معارضة يردد بعض الانتقادات يبدو بطبيعة الحال هاماً وجديراً بالمراعاة. هذا على ما أظن هو الباعث الاساسي الذي يعلل بحث الطرف العربي عن «حوار أوربي عربي». ولا بأس في ذلك. على أنه لا بد للعرب من أن يعلموا أن هذا تصور محدود. فإني لا أظن أن أوربا الغربية لها القدرة (ولا حتى الارادة) على القيام مقام الولايات المتحدة كأهمّ قوة غربية في الشرق الأوسط. ولو فعلت ذلك فليس من المؤكد أن تكون نتائج ذلك سارّة للعرب. فإنه لم يفت وقت طويل على تلك الفترة التي كانت فيها الدول الاوربية الغربية متسلطة في الشرق الاوسط، وقد توجه اذ ذاك العديد من العرب الى الولايات المتحدة كي تعدل التوازن، واني لأتمنى أن لا تعود اوربا الغربية الى أخطائها الماضية في الشرق الأوسط لو خُوِّلت ذلك، ولكني لست متيقناً من هذا. من يعلم؟ لعلنا نجد أخطاء جديدة فنرتكبها ويؤول ذلك بنا الى مصائب أعظم من ذي قبل.

وهكذا فإن أوربا الغربية الآن كيان له على الأقل نصف وعي بنفسه، وقد شرعت في بناء مركب سياسي يمكنها من التعبير عن سياسات مشتركة (ولكن يجب آن لا ننسى أن جميع دول أوربا الغربية لا تشارك بعد في هذا المركب وأن بعض الدول المتوسطة الهامة التابعة لأوربا الغربية من الناحية الثقافية - النمسا وسويسرا والثلاث دول السكندنافية - يحتمل أن تبقي دائماً خارج هذا المركب)؛ ويغلب على الظن انها في المستقبل المتوقع سوف تسعى من أجل فرض نفسها سياسياً في العالم بمحاولتها التأثير على السياسة الامريكية عوضاً عن مجابهة السلطة الامريكية مباشرة. وان نظرتها للعرب مقيدة تاريخياً بالصراع العربي الاسرائيلي والى حدّ أقل أهمية بالتجربة الاستعمارية لبعض الدول الاوربية الغربية. على أن انتهاء هذه العلاقات الاستعمارية والتطور الأخير للصراع العربي الاسرائيلي مهدا السبيل لنظرة أوربية غربية أكثر تعاطفاً أو على الأقل أكثر توازناً.

لقد تعمدت تأجيل الحديث عن العامل الذي يحتمل أنه كان له أهم تأثير على تصرفات الاوربيين الغربيين ازاء العرب في السنين العشر الاخيرة، وهي أزمة الطاقة التي باغتت العالم سنة ١٩٧٣ ومعها كل عواقبها المختلفة. واسمحوا لي أن أقول على الفور بأني شخصياً لا أعتبر أن هذه الأزمة تسبب فيها العرب ولا حتى منتجو النفط بصفة عامة. فإن السبب في الأزمة ليس النقص في المعروضات بل الزيادة في الطلبات في الغرب الصناعي خاصة، وأهم سبب في الأزمة هو التطور السريع للولايات المتحدة من دولة عندها ما يكفيها من النفط الى دولة من أهم الدول المستوردة للنفط. فلو استحقت الدول المنتجة للنفط الانتقاد فقد نعيب عليها تباطؤها في فهم ما تستلزمه الاسباب الحقيقية للأزمة وابقاءها زمناً طويلاً مفرطاً على السعر البخس حتى ان الزيادة لما وقعت كانت مباغتة وصعبة أكثر من اللازم. ولكن من الواضح أن المنتجين كانوا عند ذلك لا يزالون عامة في وضع يكاد يكون استعمارياً وألزموا على الدخول في صراع كبير من أجل الحصول على الحكم في تسعير منتجاتهم.

ولكن ليس من واجبي هنا توزيع الثناء والتأنيب. بل أسعى الآن في وصف الكيفية التي أثرت بها الأزمة علينا في أوربا الغربية. ولا شك أن كل واحد يذكر الظروف التي وقعت فيها الزيادة المباغتة في سعر النفط، حرب أكتوبر، التنقيص في الإنتاج الذي فرضته منظمة الدول العربية المصدرة للنفط، تحريم بيع النفط لهولاندة وموقف الوزراء العرب في قمة كوبنهاغن، والرأي السائد في ذلك الوقت في أوربا الغربية هو أن هذا شيء تسبّب لنا فيه العرب. ولم يتفطن معظم الناس الى أن إيران لعبت أكبر دور في تحديد السعر الجديد. وعلى كل، فلقد كان في أوربا الغربية في ذلك الوقت أناس من المفروض أن ثقافتهم حسنة وكانوا يعلمون أن ايران نفسها ليست دولة عربية.

وفي السنين الموالية عرفت أوربا الغربية تجربة الفقر حتى ولو كان الوصف الموضوعي للوضع يبين أن ذلك لم يكن إلا نقصاً مباغتاً في سرعة النمو الاقتصادي بينما كثر الحديث وكثرت الكتابة عن الثروة العربية. ورأى بعضنا حقاً عدداً من العرب يتباهون بثروتهم (أو هذا ما بدا لنا منهم) في كبار المخازن التجارية والنزل ودور اللهو الليلية في عواصمنا أو في المناطق الترفيهية مثل جبال «الألب والشاطىء اللازوردي وشاطىء الشمس». ولم يتوقف معظمنا ليتساءل عما تمثله تلك

الثروة بين ١٠٠ مليون من العرب أو إن كانت في الحقيقة تحسّن في أحوالهم. وان سألنا تلك الاسئلة فإن الاجوبة كثيراً ما وطدت إحساسنا الغريزي بأن الثروة وقعت في أيد لا تستحقها وأن أقلية من العرب الكسالى والذين هم ليسوا أهلا لذلك استغنوا على حسابنا.

ولم تكن الآراء المكونة لهذا المناخ تشجع على الدخول في حوار عربي أوربي ولكنها على الأقل بينت للأوربيين الغربيين أن العالم العربي منطقة لها أهميتها، وهم ملزمون باقامة علاقات من نوع ما معها. فإن الشرق الاوسط منذ ١٩٧٣ موجود قريباً من مقدمة مذكرات كل المناقشات حول «السياسة الخارجية» الاوربية. وهذا تطور بارز، واذا ما رجعنا بالنظر الى الكتب والمقالات التي كتبت حول هذا الموضوع في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات فإنّا نستغرب ألا نجد أكثر من حاشية تتعلق بالعالم العربي. وقد صار هذا من المستحيل في يومنا هذا.

فلقد صار العالم العربي بين عشية وضحاها تقريباً منطقة هامة تعتني بها أوربا الغربية. هناك ثلاثة اعتبارات رأت أوربا الغربية أن لها أهمية أولية. أولا أن أوربا محتاجة الى منفذ مضمون وغير منقطع نحو نفط الشرق الأوسط، السعر أمر ثانوي وأما التزويد المتواصل فأمر أساسي. لقد تحدث الرأي العام في أمريكا كثيراً عن «الاختيارات العسكرية» اللازمة لضمان التزويد لو وقع تهديده من جديد. مها كانت أخلاقيات هذا النقاش في أمريكا فإن الاوربيين رأوا أنه ليس نافعا ولا واقعيا. (أعطيت الاسبقية بدون تردد لإقامة علاقات وطيدة مع الدول المنتجة للنفط والمحافظة عليها).

ثانياً صار العالم العربي السوق الاسرع تطوراً لسلع أوربا الغربية وخدماتها وتكنولوجيتها في وقت كانت فيه جميع الاسواق الأخرى تقريباً راكدة ان لم تكن مغلقة، كانت البيوعات في العالم العربي تمثل ما يكاد يكون أمل أوربا الغربية الوحيد في المحافظة على رفاهيتها.

وثالثاً بما أن كمية كبيرة من نفط العالم متجمعة في دول عربية قليلة سكانها غير عديدين فإن ذلك يعني أن ارتفاع السعر مكّن هذه الدول من فوائض مالية هائلة صارت ذات أهمية أساسية في النظام النقدي العالمي، فلا بد أن تستثمر. فلقد وجد أصحاب البنوك الاوربية الغربية في ذلك امكانيات كبيرة وصارت هذه الأموال حيوية لاستقرار العملات الاوربية الغربية.

لقد أجبرت هذه الاعتبارات الثلاثة أوربا الغربية على النظر الى العرب نظرة تقدير وأدت الى تبلور كبير في الاتصالات بين أوربا الغربية وبين العالم العربي.

والدليل على ذلك واضح حولنا. فلقد ظهرت اللغة العربية في اللافتات والاعلانات في مدن أوربا الكبرى. ولا بد أن عدد الاوربيين الغربيين الذين وجدوا أنفسهم يزورون بلداناً عربية من أجل عملهم منذ ١٩٧٣ قد بلغ الملايين الآن. مئات الآلاف عاشوا وعملوا مدة من الزمن في بلاد عربية. ولهؤلاء الناس أصحاب وأهل يراسلونهم ويحدثونهم بعد رجوعهم. وهكذا فإن جزءاً متزايداً من المجتمع الاوربي الغربي لم يعد يعتبر العرب كصور من الورق المقوى يقرأون عنها في الصحف، وصار العرب بشراً من دم ولحم لهم احساسات ومصالح. ومن البديهي أن لا يحب كل زائري العالم العربي هذا العالم، ولكن معظمهم يلتقون ببعض العرب ويتمكنون من مصادقتهم. عند ذلك يكتشفون اختلاف أنواع الناس التي تختفي وراء الصورة الواحدة التي تستعمل للاستهزاء السياسي.

مثل هذه الاتصالات والاكتشافات ليست الا فاتحة الحوار الاوربي العربي: حوار الشعوب لا حوار المؤسسات. ولكن هذه فاتحة ليس الا، فإن اقامة حوار حقيقي يؤدي الى التفهم لا الى سوء التفاهم ليست بالشيء المضمون على كل حال. فلو كان ذلك مضموناً لما احتجنا الى تنظيم مثل هذا الملتقى.

لا بد أن أعترف لأصدقائي العرب بأني غير راض عن الحالة الحاضرة التي آلت إليها «الحضارة» في أوربا الغربية. نحن نمر بفترة عصيبة تتصف بفقداننا للحيوية الاقتصادية التي مكنتنا من التقدم بخطى عملاقة في عشرات السنين الموالية للحرب العالمية الثانية. وفي مثل هذه الظروف يميل الانسان دائماً الى وضع المسؤولية في مصائبه على عاتق الأجانب. وان المهاجرين الذين ساهموا بقسط هام جداً في رفاهية أوربا الغربية (ومنهم المجموعة العربية العامة في فرنسا) في وضع شاق في الوقت الحاضر. ويكون العرب عامة ضحايا سهلة من أجل الضغينة الاوربية. ومن الصدف أن أحوال العرب أنفسهم (وحتى هؤلاء الذين انتفعوا حقاً من ارتفاع أسعار النفط) ليست زاهرة في هذه الأيام لأن الأزمة الاقتصادية قد لحقت بسوق النفط. وقد يغري ذلك (وأرى أن ذلك مناقض للصواب) الأوربيين على الابتهاج.

وإنّا نحن الاوربيين نشكو من ضرب من الحقد. فإنّا نحنق على خضوعنا السياسي والعسكري للولايات المتحدة ونغتاظ لعجزنا عن مجاراة حيوية صحن المحيط الهادي (اليابان) في الميدان الاقتصادي. لذلك فإنّا لا نفتأ نبحث حولنا عن قوم وضعهم أسوأ من وضعنا وهكذا فإنّا نبتهج من أجل خيبات العرب.

ويبدو وكأن العديد منا يتخذ موقفاً عميلاً بحتاً تجاه العالم العربي: نريد نفطكم ومالكم ولكن شكاويكم السياسية تملّنا، ولا نظهر أكثر من اهتمام مهذّب ومتواضع بثقافتكم.

هذا موقف مؤسف جداً، واذا كان لهذا الملتقى هدف فيجب أن يكون هو البحث عن كيفية مكافحة هذا التصرف والتشجيع على حوار أعمق وأكثر نفعا.

ولي اقتراح صغير (أرجو أن يكون مفيداً). لقد ذكرت في أول هذا المقال عدم توازن الحوار الاوربي العربي بسبب انعدام لغة أوربية مشتركة. على أن هناك عدم توازن آخر أودّ أن يتمّ تصحيحه وهو عجز العديد من الاوربيين عن القراءة أو التحدث بالعربية اذا ما قارناهم بعدد العرب الذين يقرأون ويتحدثون باللغات الاوربية.

ولا بدّ لي الآن أن أعترف بعدم رضاي، خلافاً لمعظم المشاركين الاوربيين في هذا الملتقى، فإني لا أحسن العربية. فلقد صرت «اختصاصياً بالشرق الأوسط» بسبب صدفة في عملي كصحافي بدون أي تحضير جامعي، ولم تتسنّ لي فرصة الإقامة في العالم العربي أكثر من شهرين في المرة الواحدة. وإني أعلم أن كثيراً من الأوربيين الذين يرسلون للعمل في العالم العربي يتعلمون بسرعة العربية الدارجة لذلك فإني لن أحاول أن أعتذر على اخفاقي حتى في ذلك. ولكني أرى أن

الحوار الاوربي العربي في معناه الاوسع يتاذى من جراء الجهل الاوربي العام للتاريخ والثقافة العربية، وإني لمتيقن من أن ذلك يرتبط بصعوبة اللغة العربية في صيغتها المكتوبة بالخصوص على كل الناس ما عدا أقلية ضئيلة من الاختصاصيين المعلمين.

وأحسن وقت ومكان للبداية في تعلّم لغة أجنبية في المدرسة ومنهم من ينصح بالبدء في المدرسة الابتدائية، ولكن لا ينفع ذلك بعد المدرسة الثانوية. ولا أظن أنه يمكننا أن نجعل من العربية لغة اجبارية في المدارس الاوربية، ولكني أعتقد أنه يجب أن تكون تحت الطلب كاختيار، وأظن أنه لو تسنى ذلك فإن العديد من الأطفال الاوربيين وخاصة من بين الاذكياء والجريئين سوف يتعلمونها. فإن عدداً من الأطفال الاوربيين الغربيين يتعلمون الروسية بالمدرسة. أتكون الفرص والجاذبيات الموجودة في العربية أقل من تلك الموجودة في الروسية؟

إني لمتيقن أن العديد من الشبان الاوربيين يفضلون العربية، ومما يؤسف له أن لا يكون في مستطاع العديد من المدارس الاوربية في الوقت الحاضر أن تقدم لطلابها امكانية اختيار العربية. ويمكن تقويم ذلك بواسطة برنامج رسمي لتكوين المعلمين، وأود أن أختم كلمتي هذه باقتراحي أن يكون تمويل هذا البرنامج وتنظيمه تحت اشراف الحوار الاوربي العربي.

مؤلفات الدكتور سهيل ادريس

في طبعة جديدة

روايات

- الحيّ اللاتيني (الطبعة الثامنة)
- الخندق الغميق (الطبعة الرابعة)
- أصابعنا التي تحترق (الطبعة الخامسة)

قصص

- أقاصيص أولى (الطبعة الثانية)
- أقاصيص ثانية (الطبعة الثانية)

آفاق « الاداب »

- في معترك القومية والحرية (ط ٢)
- مواقف وقضايا أدبية (ط ٢)

مترجمات (صدرت أخيراً)

- الطاعون - لألبير كامو
- الثلج يشتعل - لريجيس دوبريه
- من أكون في اعتقادكم - لروجيه غارودي